محاولات احتواء العالم العربي هل اشرفت على الاكتمال؟

د. محي الدين عميمور*

■ عندما تواجهني أحداث معينة أحس بأن عليّ أن أعود بالذاكرة الى الخلف، كسائق سيارة ينظر في مرآة عاكسة، لأستعرض أحداثا سابقة، أراها جزءا من المخطط الذي يستهدف الأمة، ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

ولن أضيع وقتا في تأكيد نظرية المؤامرة، التي يخدعنا البعض عندما يحاول اقناعنا بالترفع عنها، في حين أنها واقع يكاد يفقأ الأعين منذ سايكس ـ بيكو ومرورا بما سُمّي ثورة عربية كبرى، وهي لم تكن ثورة ولا عربية وان كانت نتائجها «كوبرا».

ولن أتوقف عند الخطة «ألفا» التي أشار لها هيكل في حديثه الأسبق، والتي طورها ايزنهاور الى نظرية «فراغ» الشرق الأوسط، الذي ألقت العناية الالهية على واشنطن مهمة ملئه.

ولن أتوقف عند أحداث الخمسينيات والستينيات التي جرت فيها عدة محاولات لنسف كل امكانية لقيام تضامن عربي يواجه التحدي الذي أحدثه زرع اسرائيل في المنطقة، ومن بينها الوحدة المصرية ـ السورية.

كل ذلك معروف، وأعتبرهُ المرحلة الأولى لمحاولة احتواء العالم العربي والتي اختتمت بهزيمة 1967، وهي هزيمة مريرة كان الأمر المدهش فيما يتعلق بها أنها كانت بداية لما كان يمكن أن يكون صحوة جديدة، تجلت في استرجاع قيادة سياسية عربية لصلاحياتها كاملة لتخوض حرب الاستنزاف، ولتستعد جديا لكي يُسترجع بالقوة ما أخذ بالقوة، وهو ما تجسد في مجموعة الخطط العسكرية التي حملت اسم المآذن العالية وبدر وغرانيت الخ.

لكن ما أزعم أنه جدير بالانتباه هو ما عرفته السبعينيات، والذي أعتبره المرحلة الثانية التي أدركت فيها القوى المعادية للأمة العربية أن الهزيمة الحقيقية للأمة تحتاج الى نصر يؤدي الى الاسترخاء السياسي والرخاء الاقتصادي الانتقائي، الذي يقود الى نشوء طبقات طفيلية تكون القاعدة الحقيقية للنفوذ الأجنبي في المنطقة.

وأعتذر هنا اذا اضطررت الى اجترار بعض ما قلته في الثمانينيات، وموجزه، باختصار شديد، أن منتصف السبعينيات شهد مجموعة أحداث لا يمكن أن يكون اجتماعها وتتاليها مجرد مصادفة، خصوصا وأن ما ترتب عليها قادنا الى الوضعية التي نعيشها اليوم، ومع التذكير بالدور الرئيس لعزيزي هنري كيسنجر.

وهكذا تم فتح قناة السويس للملاحة البحرية بعد أن جرى تطهيرها، وهو ما كان محور رسالة حملتها من الرئيس أنور السادات الى الرئيس هواري بو مدين.

وللتذكير، فان هناك من كان يتصور أن بقاء القناة مغلقة في وجه الملاحة الدولية هو ورقة يمكنها أن تستعملها لارغام الغرب، الذي كان يُعاني من دوران سفنه حول رأس الرجاء الصالح، على ممارسة ضغوط على اسرائيل لانتزاع أكثر ما يُمكن انتزاعه من حقوق عربية.

وقال لي السادات حرفيا : «يا بني، قل للأخ أبو مدين بأن تطهير القناة هو قرار مصري أما فتحها للملاحة فهو قرار عربي»، ونقلتُ ذلك بالفعل الى الرئيس وأحسست بأنه لم يكن مطمئنا تماما، وتأكد ذلك عندما فتحت القناة.

وعرف نفس العام توقيع الاتفاقية الثانية لفك الاشتباك على الجبهة المصرية ـ الاسرائيلية، ويتذكر الكثيرون ما نقل عن ذلك من تفاصيل كان من أشدها ايلاما ما قيل عن دموع حاول المشير الجمسي رحمه الله أن يخفيها خلال المباحثات مع الجانب الاسرائيلي.

وكانت الاتفاقية، في نظر كثيرين، خطوة نحو الاتفاق المنفرد مع اسرائيل والذي وُقّع قبل أن تنتهي العشرية في كامب دافيد، بعد الزيارة التي قام بها الرئيس المصري الى القدس المحتلة في تشرين الثاني (نوفمبر) 1977.

وعرف نفس العام اغتيال العاهل السعودي فيصل بن عبد العزيز، والذي كان يزعج كيسنجر بالحديث عن أمله في أداء الصلاة ببيت المقدس، المتحرر من الوجود الاسرائيلي بالطبع، كما عرف تدهور الأوضاع في المغرب العربي الذي كان عمقا طبيعيا للمشرق العربي، وذلك بانفجار مفاجئ لقضية الصحراء الغربية، وبغض النظر عن تأثير الغياب النهائي للجنرال فرانكو على تسارع الأحداث وعن دور أطراف عربية في صب الزيت على النار.

وفي نفس العام انفجرت الحرب الأهلية في لبنان، وهو ما كان نقطة البداية في سلسلة من التطورات المأساوية التي وضعت بذرتها قبل ذلك في 1958 بتمويل من الحكم العراقي وبقيادة الرئيس اللبناني الراحل كميل شمعون.

وقبل أن أتوقف أكثر عند لبنان أذكر بأن تلك المرحلة في السبعينيات عرفت استغلال الجشع السياسي عند الرئيس الصومالي الراحل زياد بري، حيث دُفع به الى أتون الحرب مع اثيوبيا، وذلك في محاولة أخرى للمطالبة بحقوق تاريخية كان هدفها الحقيقي تضييق الخناق على نظام منغستو هايلي مريام اليساري، أي أن الأمر كان جزءا اخر من المخطط الأمريكي لعزل الكتلة الاشتراكية وكل من يرتبط بها.

وقبل أن تنتهي السبعينيات كان والد القنبلة النووية الاسلامية، الرئيس ذو الفقار علي بهوتو، قد عُزل ثم قتل على يد الجنرال ضياء الحق، الذي كان قد عمل لسنوات في الأردن، ثم انتقل الرئيس الجزائري هواري بو مدين الى رحاب الله في ظروف ما زال الكثيرون يتساءلون حولها، ثم وقعت موسكو في الفخ الأفغاني، وهو ما كان الرئيس الشاذلي بن جديد قد حذر منه الرئيس ليونيد بريجنيف في لقاء شاركت فيه. وربما كان الحدث الوحيد الذي فوجئت به مخابر لعبة الأمم هو سقوط شاه ايران، وقيام الثورة الاسلامية في ايران. وانتهى العقد بقيام الحرب العراقية ـ الايرانية بتعاطف مع العراق من كل الدول العربية، باستثناء سورية والجزائر على ما أذكر.

وانتهى عقد الثمانينيات بغزو الكويت الذي ما زال الكثيرون يرونه فخا وقع فيه الرئيس العراقي السابق ثم غُلّقت دونه الأبواب باستبعاد الحلّ العربي الذي كان هناك من يراه أمرا ممكنا قبل مؤتمر القمة العربية المشهور في الاسكندرية، وكان ذلك ايذانا ببداية مرحلة جديدة وصلت الى ذروتها باحتلال العراق، ثم قيام حرب أهلية طائفية زاد من حدتها الأسلوب الذي أعدم به صدام حسُين، والذي كادت آثاره أن تلقي بظلالها على أوضاع لبنان، لتخلق فتنة سنية ـ شيعية يمكن أن تتلوها فتنة دينية بين المسلمين والمسيحيين.

هذا كله يجب أن يكون في الذاكرة عند استعراض أحداث بيروت الخميس الماضي، بعد نجاح الاضراب في اليوم الذي أسماه البعض ظلما الثلاثاء الأسود.

وبداية أسجل للجيش اللبناني أنه كان العنصر الرئيسي في حماية لبنان من فتنة عمل لها البعض بماكيافيللية يخجل منها ماكيافيللي نفسه.

وحرص الجيش على ألاّ يتعامل مع الأحداث بوصفها انتفاضة تترجم هياج شارع فقد بوصلته، بل واجه عملية اطلاق النار على رجاله بحكمة نفت المسؤولية ضمنيا عن الطلبة، الذين انعكست عليهم وضعية توتر عاشها لبنان طويلا، وكان الموقف رسالة ضمنية للسياسيين تقول بأن من يقدر على هذا يقدر على ذاك.

وتذكرت أحداث تشرين الاول (أكتوبر) 1988 في الجزائر، حيث أطلقت النار على الجيش من عناصر مندسة كان هدفها استفزازه لخلق التناقض الدموي بينه وبين الشعب، لتصل الى خلق تناقض أكثر دموية بين فئات الشعب نفسه، وهو ما كان بداية لمرحلة دموية عطلت دور الجزائر العربي.

والمؤكد أن حالة الاحتقان التي عرفها لبنان وبيروت على وجه التحديد جعلت من جامعتها العربية، التي تلتقي فيها عناصر تمثل اتجاهات متعددة، واجهة كلامية للتناقضات التي تعرفها الساحة.

وللمقارنة فان الجامعة الأمريكية لم تعرف توترا مشابها.

وقبل التساؤل عمّن أطلق النار على عناصر الجيش لاستفزازه ولدفعه الى اطلاق النار على الحشود بدون تمييز يجب التوقف عند الدور المتميز الذي قام به كل من سعد الدين الحريري وحسن نصر الله.

فقد برز الحريري كسياسي نفض عن كتفيه رداء الشاب المُرفه الذي حاولت أوضاع وجهات أن تلصقه به، وتمكن Play boy بخطابه الهادئ الواعي منِ أن يكون تعبيرا حقيقيا عن «السنّة» السياسية في الشارع اللبناني.

لكن هذا ارتبط بغياب مُعيب للمرجعية السنية، التي لم يُسمع لها صوت أو يُلاحظ لها تحرك يوم الخميس، ثم راحت يوم الجمعة تتموقع، مرة أخرى، في موقع الناطق باسم الحكومة، وهو ليس مكان أي مرجعية دينية.

أما السيد فقد تمكن من تجاوز المخلفات النفسية لعملية اعدام الرئيس العراقي السابق، والتي كان من أهم أهدافها، كما سبق أن قلت، خلق الفتنة بين الشيعة والسنة عبر الوطن العربي كله، وبدا الأمين العام لحزب الله في خطابه متكاملا مع الحريري ومنسجما معه، وأعتقد أن هذا من أهم انجازات الخميس، الذي كان البعض يراهن عليه لاحداث الشرخ النهائي.

وبدت الساحة اللبنانية ساحة وطنية واحدة تعرف اضطرابا ولكنها لا تعيش قطيعة.

ولكن، من أطلق النار؟

ولست أريد أن أستبق عملية التحقيق الجنائي التي طالب بها نصر الله لأنه يعرف جيدا أن شارعه، المنضبط تماما، لا يتحمل الوزر، تماما كشارع «المستقبل» الذي لم تعرف عنه محاولات مماثلة طوال مسيرته السياسية، لكن الاحتمال الأول يشير الى بعض الميليشيات القديمة التي تحاول أن تجد لنفسها مكانا على الساحة السياسية، وخصوصا من كانوا، ولعلهم ما زالوا، حلفاء لاسرائيل التي يمكنها أن تبادر بعمليات تتصور أنها تخدم مصالحهم ومصالحها.

وهنا يجب أن نتوقف عند الصورة الهزلية التي ظهرت عليها زعامة تقليدية جعلتها، في تصوري، تفقد الكثير من بقايا وجودها السياسي المؤثر على الساحة، ليبقى لها ما يمكن أن يُعبر عنه نفوذ الزعامات العشائرية، وكثير منها لا يتمتع بالاجماع المطلق.

ولقد بدا «البيك» أسير «غيتو» كراهية سورية بشكل أعطى للحكم السوري، وأيا كان تحفظنا على الكثير من ممارساته، الحق في التعامل مع الرجل كمجرد حاقد يجسد عقدة الذنب الناتجة عن الولاء القديم، المرتبطة باحساس عميق بالعجز عن متابعة الأحداث بعقلية السياسي المتمكن الذي يرتبط به رجاله على أساس الاقتناع الفكري لا من منطلق الولاء القبلي.

ويطرح السؤال نفسه.

أين الشارع المسيحي في كل هذا؟

وأتصور أن العملية كلها كانت تستهدف احداث الفتنة في الشارع الاسلامي أساسا استنادا الى الشروخ التي أحدثتها جريمة قتل صدام حسين، ومن هنا فان الشارع المسيحي لم يكن طرفا بشكل مباشر في أحداث الخميس، وهكذا لم نسمع الجنرال عون تماما كما لم نسمع صوت «بكركي»، وهو، في تصوري، أمر معقول جدا انطلاقا من طبيعة الأحداث، ومع تجاهل تصريحات جعجع يوم الجمعة، والتي كانت جدّ هادئة برغم استهدافه للجنرال واجتراره لقضية سلاح المقاومة.

ويبقى اليوم أن يتذكر اللبنانيون ما قاله الرئيس الياس سركيس من أنه لا يمكن أن يُحكم لبنان بنصف الشعب ضد النصف الآخر.

* كاتب من الجزائر

حزب الله وطهران يخسران التأييد الشعبي

محمود محمد الناكوع *

عندما انتصرت الثورة الايرانية الاسلامية في عام 1979 كنت بلندن وعشت اجواء ذلك الانتصار مع جموع المسلمين من كل طيف ومن كل جنس، وكانت تلك الجموع في تظاهراتها وشعاراتها وخطبها تعتبر ذلك النصر نصرا لها ولحقوقها وقضاياها، وكانت تهتف بصوت واحد هو صوت المستضعفين المنتشين برياح التغيير نحو الأفضل، ومن طبيعة المستضعف ان يهتز لأي نصر يتحقق ضد الطغاة والظالمين مهما كان لونهم او اصلهم. وعندما زرت الولايات المتحدة في اوائل الثمانينيات، وشاركت في بعض الملتقيات، وخاصة ملتقيات الشباب الليبي، وجلهم من الدارسين شاهدت انتشار التدين بينهم، ولمست أثر الثورة الاسلامية، وعلمت منهم كيف تأثروا بالمد الإسلامي دون التوقف عند المذاهب الفقهية، وتفاصيل الاختلافات المذهبية والفقهية، وكان تركيزهم على الاسلام وشموله، فالاعتزاز كان بانتصار اسلامي على طغاة وعملاء لقوى استعمارية استغلالية.

وما حدث مع الشباب الليبي في اوروبا والولايات المتحدة وغيرهما، حدث مثله مع الشباب القادمين الى دول الغرب ـ للدراسة ـ من كل بلدان العالم الإسلامي، ومن تلك الجموع من الشباب برزت ظاهرة (الصحوة الاسلامية) بروزا لم يعرف من قبل، واصبح الكلام عن الإسلام، والكتابة عن الاسلام من الموضوعات الإعلامية والبحثية في الدوائر الغربية وعلى كل المستويات. ولكل ذلك اصبحت طهران مركزا للمؤتمرات والمنتديات الاسلامية، وصارت تستقطب آلاف الشخصيات الإسلامية باعتبارها عاصمة اسلامية تناصر الحركات والأحزاب الإسلامية في كل العالم.

وعندما خاض حزب الله اللبناني حرب المقاومة في صيف عام 2006 ضد القوات الإسرائيلية المعتدية، وحقق انتصارا واضحا على قوات الدولة الاسرائيلية فرح المسلمون، وخاصة العرب بسنتهم وشيعتهم بذلك الإنتصار، ووقفت الجماهير مؤيدة ومباركة لذلك النصر، بل وذهبت تلك الجماهير ونخبها الفكرية والسياسية الى حد ادانة كل نظام عربي يتردد في تأييد المقاومة، والوقوف معها ومع لبنان. واصبح السيد حسن نصر الله بطلا وقائدا ورمزا تجاوز حدود لبنان وحدود المذهب الشيعي، وراهن كثيرون على قدراته وحكمته، وانه سيكون صوت الأمة، وليس صوت حزب صغير في لبنان، وليس صوت مذهب، او محور من المحاور السياسية. ثم جاءت ازمة العراق، واحتلال العراق، ودخول المعارضة العراقية على ظهر دبابات امريكية بصورة رئيسة، وكان للاحزاب الشيعية المعارضة دورها وسهمها الكبير في التغيرات السياسية التي حدثت بعد سقوط بغداد وانتهاء حقبة حزب البعث وقيادته. ومن نتائج ذلك الإحتلال دخول طهران الى العراق كقوة لاعبة بصورة واضحة ومؤثرة، فالأحزاب الحاكمة في بغداد احزاب عراقية شيعية، كانت تحتضن من ايران الدولة، وكانت تلقى كل الدعم وكل التأييد.

العراق الذي كان يدار بقبضة حديدية بقيادة الرئيس صدام حسين، وغير ديمقراطية، تحول الى ساحة مفتوحة، واختلط الحابل والنابل، وبدأت شعارات الفتنة تطل برأسها، وانطلق مسلسل التكفير والاقتتال. وأدت مجمل التطورات التي نعرفها الى ان تضع جميع المنطقة امام امتحان عسير، ويشمل الإمتحان الساسة والعلماء وزعماء الأحزاب والنخب الفكرية..... وتابع الجميع موقف حزب الله، وخطابات زعيمه السيد حسن نصر الله، كما تابع الجميع موقف نظام طهران ازاء ما يجري في العراق من اقتتال. فماذا كانت النتيجة؟ وماذا حدث في اوساط الرأي العام العربي والإسلامي الذي كان يهتف ويؤيد طهران الثورة، ثم حزب الله المقاوم؟ ان المتابع لما يقال في الفضائيات، وما يكتب في شتى وسائل النشر، لا بد ان يلاحظ حدوث شرخ كبير في الجبهة التي كانت تؤيد او تتعاطف مع طهران وحزب الله، وخاصة بعد اعدام صدام حسين بالطريقة التي شاهدها العالم، وما تجسده من منافاة لتقاليد التعامل مع حالة الموت، ثم مع التعامل مع عمليات الاقتتال في العراق. لا شك ان الشعبية التي تمتعت بها الثورة الايرانية في بداياتها، كما الشعبية التي تمتع بها حزب الله ومقاومته الشجاعة ضد اسرائيل وجيشها، قد بدأت تنحسر وتتلاشى في اوساط اسلامية كثيرة. أقول هذا الكلام وانا احد الذين كتبوا عن الثورة الاسلامية في ايران، فقد نشرت بحثا في رسالة صغيرة بعنوان (على هامش صحوة العالم الاسلامي) عام 1979 وقلت فيه: «في بداية عام 1979 قامت اول جمهورية اسلامية في ايران وبحركة شعبية لم يشهد لها التاريخ المعاصر العالمي مثيلا. فالشعب الأعزل المنطلق من المسجد ومن المزرعة ومن المتجر ومن المصنع وتحت شعار الإسلام اسقط اعرق نظام ملكي، ولم تسعفه كل الامكانات التقنية والمالية والبشرية المتوفرة لديه. والآن تمر هذه التجربة بامتحان صعب من جميع الوجوه. ونحن كمسلمين ننظر اليها باعجاب وبفخر، ولكننا في نفس الوقت نشفق على هذه التجربة، لأنها تواجه تحديات كبيرة، ولا نعلم مدى قدرتها على الإستمرار، وعلى تجسيد وتحقيق الدولة المنشودة» انتهى النص.

وعندما كانت مقاومة حزب الله تخوض معاركها البطولية في جنوب لبنان صيف العام الماضي كتبت اربع مقالات نشرتها بـ«القدس العربي» بلندن اشدت فيها بانتصاراتها، كما اشدت بقيادتها وبحكمة امين عام حزب الله السيد حسن نصر الله. وكنت ازعم ان حكمته ستجعله قادرا على التعامل مع التحديات السياسية التي ستواجهه داخل لبنان مع شركاء الوطن. والآن ارى ان كلا من قيادة طهران، وقيادة حزب الله، لم تكن في مستوى التحديات السياسية التي يمر بها العراق، ولا تلك التي يمر بها لبنان، فالعراق سقط في اتون الفتنة المذهبية، ولبنان على شفا تلك الفتنة. والمنطقة العربية كلها تدفع الى مستقبل مجهول ومخيف، وهناك فرصة أخيرة لإنقاذ ما يمكن انقاذه، والحكمة تقتضي من جميع القيادات السياسية والفكرية والدينية في كل البلدان العربية ان تعمل على افشال المخططات الخارجية، وان تعمل في الوقت ذاته على احتواء ومحاصرة الفتنة المذهبية التراثية التي لا تحقق اي مصلحة لشعوب المنطقة.

* كاتب من ليبيا يقيم في بريطانيا

لبنان الازمات وهجرة النخب وعلو اصوات ديوك الطوائف.. هل من حل لهذه العقد؟

احمد منصور*

■ كلما تتابعت الأيام وتصاعد التصعيد، او هدأ ليعود من جديد، كلما انتصب امامنا السؤال كالمئذنة: ماذا بعد؟ لبنان الى أين؟

ألأزمة الاقتصادية تخنق، والأسعار تحرق، والهجرة تتواصل (حوالي مليون ونصف المليون من عام 1975) فآلاف الجوازات يسلمها الأمن العام لطالبيها: التسريح مستمر. البطالة تتزايد. التلوث الهوائي يقتل ثلاثمئة وخمسين شخصا سنويا في بيروت وطرابلس فقط. المياه الجوفية ملوثة بنسبة تسعين في المئة. معظم الشريط الساحلي ملوث. التراب كيميائيا ملوث. الكهرباء نصف كهرباء. والماء نصف ماء واحيانا سراب لأيام وايام.

والسيوف على الرقاب ان لم تدفع الجيوب في الآتي المحدد. الطلاب يخافون جامعاتهم فالعلم ليس فيه علم والحوار يدور احيانا بأحرف السكاكين، ولهذا يتشعب النزوح من جامعة الى اخرى ومن فرع الى فرع رديف. والجوع يطل بخجل أقله التفتيش في المزابل عما يمكن بيعه او اكله. والكلام بالسياسة (عشق اللبنانيين) بدأ يعرف المنع في المصارف والشركات والمصالح خوفا من الشحن والتعصب وتفاديا لتعطيل الحياة الاجتماعية والمهنية والتجارية في البلد. واعتصام المعارضة في قلب العاصمة فاقت خيامه على الألفين ومر عليه اكثر من خمسين يوما. اما الاعتصام العمالي فهو طيار يحط كل يوم امام وزارة ليست كسابقاتها. والحوادث الكثيرة المتفرقة (ذات الايقاع المذهبي والطائفي) غائبة بشكل عام عن الاعلام بكل فروعه. الاذاعات والفضائيات والصحف كالديوك الشروية تعبر في معظمها الواحدة عن زعيم او وزير او حزب او طائفة... والنشرة الاخبارية عذاب للسامعين تسحل آذانهم خلال ثلاثة ارباع الساعة حيث تتكرر التصريحات مرة على لسان المذيع ومرة أخرى بلسان المتكلم عن طريق الأشرطة المسجلة، والمتكلمون من الزعامات وظلالهم بالعشرات وباللغة التي لا تعرف دائما الرسالة الاعلامية والمسؤولية الاعلامية ناهيك عن تحزيزها بالاعلانات السمجة الثقيلة التي لا تستسيغها الأذواق والأسواق فيضطر واحدنا الهرب الى اذاعة فرنسا الدولية او اذاعة لندن لنسمع في عشر دقائق ما لا نستطيع سماعه بشكل مركز طيلة اليوم. والأنكى من ذلك كله تدافع مذيعين ومذيعات كأن الكثيرين والكثيرات منهم تعلموا العربية في اندونيسيا وسريلانكا والفلبين، اذ لا يتردد البعض منهم في التركمة بالعامية وتطعيمها بالكلمات الهجينة من اللغات الأخرى دون اي خجل او وجل، ولا يتوانون عن جلد ابن منظور وسيبويه دون اي حياء.

لقد أصبح تجريد الآخر من الشرعية والدستورية هو الموضة المشتركة، فمن يأكل خبز السلطان عليه أن يضرب بفكه. وهذا ما يضعضع انتباه البسطاء الذين يصغون ويقرأون. الطبقة السياسية اللبنانية عدديا قد تكون أوسع من كل الطبقة السياسية في فرنسا اوالولايات المتحدة. اذ قد لا تقل عن الألف زعيم وباش زعيم يتقاسمون الأدوار السياسية والدينية فوق ثمانية عشر شعبا أو طائفة في لبنان عدا (الاحزاب العقائدية التي غدت بدورها طوائف جديدة أو ارتدت طوائفها) وهي بشكل عام في نعيم تحسدها عليه جميع الطبقات السياسية في العالم، فمن بين اربابها من يملك الطائرات الخاصة بالاضافة الى المال في البنوك المحلية والخارجية وكذلك المؤسسات والأراضي والسيارات والقصور في الداخل والخارج بينما معظم الشعب اللبناني في حالة يرثى لها ولولا الاغتراب لمات مئات الألوف من الجوع كأيام الحرب العالمية الأولى في ظل الاستعمار العثماني. وهذا ما يدفع المراقب الى عدم الثقة بالديمقراطية اللبنانية العقيمة والبعيدة كل البعد عن التمثيل الحقيقي (وهذا ما رأيناه في ثلاثاء الدخان والنار والدم وفي الخميس الذي تلاه).

ان الفديراليات الطائفية القائمة على محادل المال هي التي تنتصر في المواسم الانتخابية الفارغة عن طريق افراد يفرضون احيانا لسبب أو لآخر على مناطق لا علاقة لهم بها وقد يفرضهم احيانا الجاه ومنطق اللعبة السياسية في البلد. وهكذا يبدو (دون ان نعمم) أن النواب ليسوا حقيقة من هذا الشعب وهذا الشعب ليس من هؤلاء النواب، وما التقاء الفريقين الظاهري سوى تلاق سطحي خادع يتكرر مرة كل أربع سنوات وكل ذلك «رغم صدور قانون من اين لك هذا منذ أكثر من خمسين عاما» الذي لا يزال كالصراخ في الربع الخالي.

هذا البلد تكثر فيه الجامعات الأجنبية والطائفية والوطنية والتعليم فيه لا يترك أثرا للثقافة بل تشبيحاً باسمها وراء أصحاب المراكز والنفوذ. فالولاء (أصل البلاء في لبنان) له ألف شكل ولون طالما يؤمن المصلحة واستبعاد الأصيل والوطني والخلاق. وأبناء البلد الحقيقيون يطفشون من غربة الوطن الى وطن الغربة والباقون في أكثريتهم يعانون القهر والذل والموت والسقوط في المعارك التي يفجرها الآخرون.

ان الروح الرياضية في البلد غدت روحاً قتالية مما أجبرالمسؤولين على أجراء المباريات في ملاعب بدون جماهير فحلت محلها الكراسي الحديدية والمقاعد الاسمنتية والحجرية الفارغة.

لقد انتقل المربع المقاومي من محاصرته في الجنوب ليحاصر بدوره بيروت من قلبها محاولا مع التيار الذي شكله أن يخلق واقع قوة يعكس الوضع السياسي الجديد بعد الانتصار الأخير فيدفع نظام الحكم الى موقف وسطي لا هو مع السعودية ـ أمريكا ـ فرنسا ولا هو معاد لسورية ـ ايران كأنه اراد أن يربع الدائرة فيكون بدوره المحور الموازي.

لقد لعب حزب الله أوراقه بطريقة لا ينقصها الذكاء ولا المهارة في فن المناورة والمراوغة لابعاد مرارة كأس المحكمة الدولية عن سورية حليفته والتي لا يستطيع الأستغناء عنها ظهيرا استراتيجيا وجسرا بينه وبين ايران حليفته العضوية التي لا يستطيع الاستغناء عن مساعدتها ومالها «النظيف» في أحلك اللحظات.

على الصعيد النيابي يمثل الحزب أقلية من النواب تشكل مع حركة أمل والتيار الوطني الحر والآخرين حوالي ثلث المجلس بمواجهة الثلثين اللذين يمثلان الأكثرية في الجانب الآخر. تلك الأكثرية التي ينعتونها بالوهمية. . اشارةً الى مئات الآلاف التي حشدوها في ساحتي الاعتصام التوأمين والتي كانت بتصورهم تجسد قوة جديرة بارهاب أخصامهم فيغيروا في مواقفهم ويمنحوهم الثلث الضامن بلجم الحكومة عن أي «شطط» في سياستها باتجاه الغرب مما يشكل مرحلة جديدة في تاريخ المنطقة.

الاعتصام الجاثم مستمر ومتوسع باستمرار والاعتصام الطيار طيار كل يوم في اتجاه جديد، والجيش صامد أمام الاعتصام والويل لمن يتجاوز الخطوط الحمر فالمواجهة جاهزة وهذا ما لا يريده حزب الله بالذات.

لكي تتضح الصورة أكثر فأكثر فاننا ملزمون بتسليط الضوء على قوى الجوار بدءا باسرائيل التي تعتبر نفسها بلد الانتصار الدائم (رغم نصف الهزيمة تشرين الاول/ اكتوبر 1973 وهزيمة الهروب من الجنوب أيار/ مايو 2000 وعدم انتصار حرب تموز ـ آب المنتظر). انها حاليا في غليان وآلتها العسكرية (عمودها الفقري بل وجودها) تواصل الاجتماعات والدراسات من أجل شن حرب في أقرب وقت على لبنان حزب الله، حالمة بكسر ساحق يعيد لها عنفوانها ويجرد الجنوب من حزبه المقاوم واسلحته التي طالما طالت حيفا وسواها.

أسرائيل هذه أرادت ابعاد الخطر العراقي عنها حتى آخر جندي أمريكي وكذلك الخطر الايراني الذي بدوره على لائحة الانتظار. انها تطير فرحا لانتصار مخططها القديم في الضفة وغزة الذي بدأ يعطي ثماره في الصراع الدموي بين القوتين المتوازنتين فتح وحماس. انها تحصد في فتح وحماس، وحماس تحصد في فتح والعكس بالعكس في ساحة الصراع الفلسطيني ـ الفلسطيني اللامعقول.

كما أن الحدث الأخير الذي عميت أبصار العرب عنه كان احتلال الجيش الاثيوبي للصومال وطرد المحاكم الاسلامية المتواجدة على معظم أراضيه وتسليمها الى حكومة محلية محدوفة كانت تنتظر نهايتها على أيدي قوات المحاكم، ناهيك عن قيام طائرات امريكا بضرب فلول المحاكم الاسلامية أينما تواجدت في الأحراش وسواها مما حدا ببريطانيا بالأقتداء بها، وكأن امريكا نسيت الدرس القاسي الذي تلقنته سابقاً في الصومال والذي حملها الانسحاب منه.

كل ذلك يجري في الوقت الذي تتوجه فيه البوارج وحاملات الطائرات الأمريكية نحو الخليج كوسيلة ضغط متقدمة أو كقوة طليعية لحرب محتملة لأمريكا على ايران قررتها اسرائيل وفي حال عدم حصولها فاسرائيل ستتولى (على الأرجح) القيام بها خلال السنة الحالية.

أما على صعيد المدار الجواري الثاني فنرى مصر ـ السعودية ـ الأردن.. تبذل أقصى الجهود لمنع تفجير حرب أهلية أو طائفية في بلد الأرز، فالسعودية بمالها ودبلوماسيتها، ومصر بسفارتها وأمين عام جامعة الدول العربية بركضه الذي لا يعرف التوقف في «الأمازونيا اللبنانية» ذلك الذي كان وزير خارجية مصر اللامع فنفته السياسة الى مستشفى الأمراض العربية المستعصية المعروف بجامعة الدول العربية. فهل من المعقول أن تتركه نفس السياسة يسجل انتصارا فريداً في حل المعضلة اللبنانية لتتسلط عليه الأنظار العربية والمصرية خاصة فتدفعه الى معمعة الرئاسة المصرية المقبلة؟.

واذا ما انتقلنا الى المدار الجواري الأبعد: اليمن ـ الجزائر ـ وخاصة السودان فاننا ندرك أن العيون بصيرة والأيدي قصيرة. وكأن لبنان استسلم الى انقسام ثنائي: لبنان حزب الله ـ عون ـ سورية ـ ايران، ولبنان السنيورة ـ جنبلاط ـ جعجع ـ فرنسا ـ امريكا.. كل جانب لا يتزحزح، واللغة تحتد بين الفريقين، والاتفاق لا يلوح في الأفق، والزمن ليس في صالح كليهما.

علينا أن لا ننسى أن مركزية السلطة انتقلت تاريخيا في لبنان من الدروز الى الموارنة وفي المرحلة الحاضرة نراها تتأرجح بين قوتين متوازنتين نسبياً: السنة والشيعة ولكلتيهما امتداد ودعم على الصعيد المحلي والاقليمي والعالمي.

لقد غدا اعتمار العلم اللبناني على الهامات التقليعة المشتركة بين الطرفين والأطراف الأخرى.

لبنان المتصرفية والكبير أصبح اذاً على مفترق جديد يحدد الخطوط العريضة للمرحلة القادمة. زعزعة الأحجار وتحريكها والتعديل في هيكلية المبنى شيء من اصعب الأشياء. انه يفجر الأزمات والأحداث والدم الى أن يعقد توافق. ولهذا تحركت عبقرية حزب الله منعا لوحدة الجبل التقسيمية غير المستحيلة ـ الى جذب الجنرال عون الأقوى في الشارع الماروني لتفاهم (تحالف) واعد على خط تماس حرب السبعينات والثمانينات في كنيسة مار مخايل المارونية، مما خربط فيزيونامية السطح السياسي وأدخل الحابل بالنابل.

لبنان حاليا ـ كما ذكرت ـ لبنانان، كجبله المنشق الى سلسلة شرقية وأخرى غربية رغم التداخل عبر الوادي المشترك. هناك لغة في وجه لغة.. منطق في وجه منطق.. ممنوع التراجع.. لا أحد يثق بأحد.

الحرب اللبنانية ـ الاسرائيلية الأخيرة أفرزت البانوراما السياسية التالية: أكثريتين كل واحدة باعتقادها أنها هي الأكثرية الصحيحية: أكثرية حزب الله ـ أمل ـ التيار الوطني ـ الديمقراطي ـ المردة.. التي هي على علاقة جيدة مع سورية وايران هذا من جهة، وأكثرية المستقبل ـ القوات ـ التقدمي الاشتراكي ـ الكتائب... التي هي على علاقة جيدة مع السعودية ومصر والأردن والمباركة من الولايات المتحدة وفرنسا من جهة ثانية.

ما يجب الانتباه اليه هو جيل أبناء العشرين بعد الحرب التي توقفت منذ ثمانية عشر عاما وهم متحفزون (نظرا للحرمان والعنف والاغراء) للمغامرة سيما وأطراف الساحة بشكل عام لا يفتقدون للمال عصب الحرب. هؤلاء الشبان ليس لديهم ما يخسرونه ناهيك عن جهلهم الكلي لمعنى الحرب الفعلية. وعن جهل البعض بأن البطالة في البلد رسميا تمس 20 % اما في الحقيقة فهي تتراوح بين 40 الى 60 % وهذا ما يشكل سدا منيعاً امام تطلعات الأجيال الصاعدة.

ان مسار لبنان التاريخي في مفاصله المتعاقبة والمتشابهة نسبيا عرف مشاريع حلول مؤقتة كالوزارة الرباعية: اثنان من السنة: رشيد كرامي والحاج حسين العويني واثنان من الموارنة: بيار الجميل وريمون اده وذلك نتيجة «لثورة» 1958 وللثورة المضادة لها نظرا لقاعدة: لا غالب ولا مغلوب المعمول بها في لبنان في ظل ميثاق 1943 بين بشارة الخوري ورياض الصلح غير المكتوب.

من هنا ومنعاً لانفجار البلد من جديد حصل لقاء بين جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسورية) ورئيس جمهورية لبنان الجنرال فؤاد شهاب تحت خيمة مشتركة نصبت على الحدود السورية ـ اللبنانية فاتفقا على تنظيم العلاقات بين البلدين بشكل عقلاني مسؤول يحترم مصالح البلدين مما وفر للبنان مرحلة هادئة فيما بعد. فما الذي يمنع اليوم اقامة حكومة سداسية برئاسة الرئيس فؤاد السنيورة قوامها ممثلون عن الخمس او الست طوائف الأساسية في البلاد، يعقد على أثرها اجتماع قمة ثنائي سوري ـ لبناني على الحدود المشتركة بين رئيس الوزراء اللبناني ونظيره السوري أو بين القيادتين السورية واللبنانية للبحث جديا في اقامة ميثاق مشترك واقعي عملي لأمد محدد معقول ينجي البلد من تبعات الحرب الأهلية الممكنة. اذ ليس من الممكن (والتاريخ يؤكد ذلك) أن يكون حل المعضلة اللبنانية دون أن يكون لسورية دور كيفما كان النظام السياسي فيها. فالأنظمة تتغير انما المصالح والمعطيات فهي من الثوابت رضي أم كره الأقربون والأبعدون.

ان سورية استفاقت من صاعقة الحريري وكارثة الانسحاب وعادت عن طريق أنصارها في الداخل اللبناني من خلال الفراغات والفسوخ في النظام اللبناني وغدت أقوى مما كانت بكثير، واذا لم يكن لها نفوذ في فردوسها المفقود فانها تشعر بأنها معراة ولا وجود لها في أي مكان في العالم ولهذا كان الرئيس كميل شمعون الأسبق يكرر: «السوريون هم من يعمرون البلد وهم من يخربونها».

لقد أثبت الحوار الداخلي في لبنان (رغم عدم الاستغناء عنه) انه لا يؤدي مع الأسف الا الى البوار. فالبلاء كما قلنا هو الولاء. والذي في يديه المال بشكل عام في يده الحل والربط محليا واقليميا ودولياً. وهذه المرحلة غير العادية تستلزم رجال دولة غير عاديين وقادة تاريخيين لا رجال سياسة محليين مصلحيين وطائفيين ومن هنا صعوبة الحل لا بل استحالته.

اذا توافرت النوايا الطيبة والارادات المسؤولة فانه ليس من المستحيل الاتفاق على مراحل بخصوص المسائل الكبرى كالمحكمة الدولية وسلاح المقاومة والانتخابات الرئاسية والنيابية، لكن العنصر المفقود هو النواة اللبنانية الصلبة الواثقة بنفسها التي تستطيع ان تقول في بعض الأمور المصيرية : لا: الى القريب قبل ان تقوله الى الغريب. انه القفل الضائع الذي لا مفتاح له والذي عليهم ايجاده وصنع مفتاح له، كما على الأطراف اللبنانية ان تقوم بانقلاب جذري في مفاهيمها فبدلا ان تكون ايادي للأقارب والأباعد عليها ان تجير هذه الدول من أجل حل الأزمة اللبنانية وحل مشاكل البلد. فألأولوية هي للوطن قبل كل شيء. فماذا يربح حزب الله (على سبيل المثال) اذا ربح سورية وايران وخسر موقعه في لبنان؟ وماذا يربح تيار المستقبل اذا ربح السعودية والأمارات والكويت والأردن ومصر وخسر موقعه في لبنان؟ ذلكم هو السؤال.

غسان تويني سنديانة العصر وأبو الحوار اللبناني ـ اللبناني غسل منه يديه ـ بعد ان رأى ما رأى ـ قائلا: هذا الحوار قد غدا أكاديميا أكثر من اللازم وأنا الآن ادعو الى لجنة انقاذ... والاقتراح تحول بطبيعة الحال الى أنقاض وطار صاحبه الى مدينة النور علها تلهمه الصبر وفرادة الحل. والطريف أن السفيرين المصري والأمريكي كانا صفحتين لورقة واحدة فالأول قال: «لا تأملوا بشيء يأتي من الخارج ولا بديل عن الحوار» والثاني قال: «ان الخارج لن يقدم لكم شيئا» وحتى الطيب أردوغان رئيس الوزراء التركي قالها بصريح العبارة: «تقتلكم الفتنة ولا يحفظكم الا وحدتكم». كذلك ما سمعوا العبرة من العدو حالوتس رئيس الأركان الاسرائيلي القائل في استقالته : «ان مفهوم المسؤولية هو كل شيء» وما تأملوا كلام سليفان شالوم عضو الكنيست الليكودي: «هناك حرب أخرى» وسواه الذين كرروا نفس الفكرة.

هذا لا يعني أن أولي الألباب والحول لا يعون ولا يفقهون بل بالأحرى اللعبة أصبحت أكبر من اللاعبين المحليين وأبعد من الاعتصام الرابض والزمن القادم. وكلا الفريقين مطلوب منها الحسم. فإما يعود لبنان الى شرقه العربي الاسلامي واما هناك نيو سايكس ـ بيكو ولن يستطيع الوضع أن يستمر في الما بين ـ بين الى ما لا نهاية.

ان حل العقدة اللبنانية يكمن في معجزة كبرى تتراوح بين براءة سائق التاكسي في قوله: «الاعتصام ما راح يظل وحرب ما راح تصير وبالنتيجة راح يحصل حلّ» وبين ما قاله محمد حسنين هيكل منذ خمسين عاما في كتابه: «العقد التي تحكم الشرق الأوسط» والذي استهله بلبنان كباب لهذه العقد قائلاً: «التوتر في الشرق الأوسط ليس في حاجة الى ساسة يحلون تعقيداته وانما هو في حاجة الى أطباء نفسيين يحللون عقده. لا تحكم الشرق الأوسط المشاكل نفسها وانما تحكمه العقد التي خلفتها المشاكل التي تركت وراءها آثارا ورواسب تراكمت بعضها فوق بعض وتفاعلت مع العوامل البشرية في أعماق نفوس الرجال الذين يصنعون الحوادث أو يصنعونها للشرق الأوسط» وبين ما قاله أستاذ الفلسفة في الجامعة اللبنانية الذي بدأ متسائلا : «هل نستطيع تصور دائرة بدون مركز؟ الجواب نعم هناك دائرة بدون مركز مركزها خارجي. والمثل على ذلك: اذا وضعت كرة وسلطت عليها الضوء فإن ظلها على السطح يشكل دائرة. هذه الدائرة مركزها خارجها وهذا هو لبنان أي المشكل.

أن تعيد المركز الى الدائرة هذا هو الحل».

اننا ـ اذن ـ بانتظار من يعيد المركز الى الدائرة وتلك هي المعجزة.

* كاتب وشاعر من لبنان